469 يوما
ربوحي يوسف

469 يوما

ربوحي يوسف

النشر الالكتروني

تستعرض لكم دار نسمات الأدب للنشر

الإلكتروني بعزيمة وإبداع جديد

الكتاب : كتاب جامع

المؤلف: ربوحي يوسف

غلاف الكتاب: منى وجيه

موك اب الكتاب: جيهان سمير

تنسيق داخلي: سها منصور

إدارة الدار: رزان محمد كليب

مع نسمات الأدب، أفكارك تنبض بالحياة!

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

ملاحظة

"إن كنـــت تفتقـــد قلبًـــا ينـــبض بالإنســـانية، فـــأغلق هـــذا الكتـــاب بهـــدوء، فهـــذه الصـــفحات ليســـت إلا مـــرآة تعكـــس أرواحًـــا مازالت تؤمن بالحياة وسط الركام."

تيتا، أين أنت؟

هذه هي تعويذتي السحرية التي أرددها كل مساء عندما أدخل كوخنا الصغير، لطالما كان البحث عن جدتي جزءًا من طقوسي اليومية فهي هادئة ومسالمة، بالكاد تُسمع لها حركة، حتى يُخيل لك أن المنزل فارغ تمامًا، لكن سرعان ما يعلن صوت كرسيها المتأرجح حضوره وهو يتمايل أمام المدفأة التي تراقص شراراتها نورًا ودفئًا، هناك تجلس وهي تحتسي كوبًا من الحليب الممزوج بقطع الشوكولاتة، ذلك المشروب الذي يجعلني أدرك ما هو دفء العائلة حقًا، لكن فجأة قاطعت يديها الباردتان تأملي ووضعتهما برفق على عينيّ،

لابد أنها حسورة المساء.

_"من أنا يا تُرى؟"

ضحكت وقلت:

_"لابد أنكِ أجمل وأفضل تيتا في العالم، جدتي الغالية!"

ابتسمت ابتسامتها الدافئة وسألتني بحنان:

_"كيف تعرفني في كل مرة يا حفيدي؟"

فأجبت بفخر:

_"لأنني شعرت بدفء يديك رغم برودتهما، ومع فقدان أبي وأمي، أصبح الأمر أسهل، لقد نقصت الأيدي التي تلمسني، وبقيت يداك."

تنهدت جدتي ببطء وقالت بأسف:

_"آسفة يا فارس على فقدان والديك."

رددت بنبرة حزينة:

_"لا بأس يا جدتي إنه ليس خطأك، فلولا تلك السيارة المجنونة لكانت حياتنا مختلفة ولكنا اجتمعنا جميعًا هنا سويا."

نظرت إلى المدفأة للحظة ثم تابعت:

_"نعم يا جدتي فقد توفي والداي وأنا في العاشرة من عمري، لازلت أتذكر الحادثة رغم مرور زمن طويل عليها، كانت السماء يومها ملونة بالرمادي، غاضبة كأنها تبكي على ما سيأتي، كنت جالسًا في المقعد الخلفي ألعب بإحدى ألعابي وأستمتع بوقتي، كان والداي يستمعان إلى أجمل قصائد محمود

درويش، ونحن في طريقنا إلى مخيم النصيرات لإغاثة إخوتنا هناك."

فجأة ودون سابق إنذار، دوى صوت لا يزال يطرب في أذني، صوت اصطدام عنيف توقف عنده كل شيء، اللعبة التي كنت أمسكها سقطت من يدي، والسيارة احترقت، ظننت أن الحياة انتهت في تلك اللحظة، لكن شاء القدر أن أتمسك بحبل الحياة، بينما لم يستطع والداي النجاة، فسلامًا على روحيكما يا أمي وأبي.

ورغم كل هذا الألم، علّمتني جدتي أن الحياة تستمر، وأن الأشخاص الذين نحبهم يظلون معنا في قلوبنا مهما ابتعدوا، كانت تقول لي دائمًا:

_"فارس، أنت القوي الذي يحمل ذكريات والديك، وأنت من سيحكي قصتهم للعالم."

واليوم وأنا أجلس بجانبها قرب تلك المدفأة، أشعر أنني لم أفقد كل شيء، لقد فقدت الكثير، نعم، لكنني كسبت القوة لأستمر، والحب الذي يربطني بجدتي يجعلني أؤمن أن الحياة مهما كانت قاسية تحمل في طياتها جمالًا يمكننا أن نعيشه ونقدّره.

قاطعت هذه الأجواء اللطيفة دقات قوية صاحبتها أصوات صاخبة، خرجت لأرى من الطارق فإذا بهم جنود الاحتلال الإسرائيلي، للأسف لم تستطع هذه الصفحات تحمل بغضهم وقساوتهم

ومدى شرهم، لقد اتخذهم الشيطان شركاء فصاروا معلمين في القتل والعنف، إنهم الأسوأ على الإطلاق لكن الأسوأ من هذا هو دعم العالم لهم ولأعمالهم التي لا تفرق بين طفل وامرأة ولا تعرف الرحمة سبيلًا، تقدم إليّ أحد الجنود وهو يتحدث بعربية ركيكة:

_"إنها دورة تفتيشية."

نعم، فقد جعلوا الدخول إلى بيوت السكان، سكان هذه الأرض العريقة، مجرد دورة تتكرر كل مرة، بقسوة أكثر وبتفتيش أدق، حتى أن وجوههم هذه المرة كانت تحمل ملامح متوترة وقسوة غير معتادة.

سألته: "وما السبب؟"

رد الجندي:

_"من أجل التأكد من محاربة الإرهاب."

ضحكت بقوة وسخرية:

_"إرهاب؟ أتقصد المحاربين من أجل الوطن؟ للأسف تذكرت أنك بلا وطن فلن تفهم التضحية في سبيله، ولا تعتقد أن وعدًا من شخص معتوه سيبني لك وطنًا، إن الوطن روح تمشي في عروقنا وليس مجرد أرض نعيش فيها."

دخلوا وفتشوا وبعثَروا كل شيء، قلبوا المكان رأسًا على عقب ولم يجدوا شيئًا، انصرفوا تاركين وراءهم عاصفة من الملابس والأثاث المتناثر، التفتُ إلى جدتي وابتسمت، فقالت:

_"أتعرف ما الوقت الآن؟"

رددت بحماس:

_"إنه وقت التنظيف!"

استمتعت بوقتي مع جدتي ونحن ننظف ونغني معًا، ونقضي وقتًا ممتعًا رغم شقاء العمل كانت النتيجة مبهرة إذ أصبح كوخنا الصغير جديدًا ولامعًا، كنت متعبًا للغاية لكن دوالي جدتي غيّرت تعبي فهي رقم واحد في تحذير الدوالي، نمت يومها بجسد مرهق وبطن ممتلئ، نمت وأنا حامدًا لله على حياتنا رغم صعوبتها، لكن في منتصف الليل حين يعم الهدوء والسلام تغير إلى أصوات صاخبة، ظننت في البداية أنه مجرد زفاف أو احتفال لكن الأصوات زادت

صخبًا وقلقًا، خرجت بأعين مغرقة بالنوم ورأيت ما لم أره من قبل، كان طوفانًا من الناس يهرعون ويركضون بين الخيام يحاولون الإمساك بأي شيء يمكنهم حمله، وجوه شاحبة، بعضها يحمل حقائب فارغة، وبعضها الآخر يحمل صور أحبائه الذين لن يعودوا، اكتفيت بالنظر والصدمة تعتريني، وبدأ المشهد يتكلم شيئًا فشيئًا حتى فهمت، لقد بدأت الحرب، لم أعرف ما الذي عليّ فعله سوى مشاهدة شريط حياتي وهو يمر أمام عيني، دخلت مهرولًا إلى جدتي لأوقظها وقلت:

_"تيتا، استيقظي! علينا أن نرحل!"

لكن قبل أن تتمكن من الرد بدأت السماء تمطر نارًا، الصواريخ تهبط علينا وصوتها أشبه بعواء الموت، تذكرت في تلك اللحظة صوت اصطدام السيارة الذي خطف والديّ، اقتربت الصواريخ أكثر فأكثر، وصرخت:

_"تيتا، انتبهي!"

استيقظت صباحًا بعد حادثة أليمة، لم أصدق أنها حقيقة، استيقظت على صرخات الناس تتعالى وأنا بين كومة من الركام، سقطت على الأرض من شدة الانفجار ورأسي يكاد ينفجر من الألم، شعرت بالاختناق بالكاد أستطيع التنفس، تسللت أضواء سيارة الإسعاف نحوي، حاولت أن أصرخ بصوت مبحوح وألوّح

لهم بيدين مكسورة حالمًا أن يلاحظوني، لحسن الحظ هذه المرة أسعفوني، لكنني لم أفهم شيئًا؛ أين جدتي؟ هل تسمعينني؟ زحفت نحو المستشفى، وكنت أتمنى ألا أصل أبدًا، لكن عندما دخلت رأيت جدتي وهي بحلّة بيضاء كأنها ملاك على الأرض، في نوم عميق وهادئ.

عميت وتبكمت وحاولت أن أصرخ لكن الصوت خانني، شعرت بأنني فقدت جزءًا من روحي تلك اللحظة، لم أبكِ حتى فقد كنت في صدمة صامتة طويلة كأن قلبي تجمد من هول الموقف.

بدأت أسمع أصوات البكاء تتعالى من حولي خاصة صوت طفلة صغيرة لم تستطع السيطرة على دموعها، كانت

جالسة بمفردها ترتجف من الخوف، اقتربت منها وسألتها عن حالها لكن نظرتها كانت كافية لتروي لي كل شيء، كانت تلك النظرة مرآة لوجعي، لذكريات فقداني، عيناها أخبرتاني بكل ما لم أستطع البوح به.

في اليوم التالي، شعرت بأنني مجرد شبح يسير في هذا المخيم المحطم، كنت أحمل بيدي أريكة مكسورة وكرسيًا وبعض الأوراق وأضعها في زاوية صغيرة، كتبت لافتة بسيطة:

_"هنا تُصنع السعادة."

لم أكن أدري إن كانت تلك العبارة سخرية من القدر أم رغبة في تحديه؟ لكن شيئًا ما في داخلي أراد أن أؤمن

بأن الحياة يمكن أن تبدأ من جديد حتى وسط هذا الخراب.

تجمع الناس حولي وبدأوا يأتون، ليس فقط بحثًا عن العلاج أو المساعدة بل بحثًا عن أمل، عن شخص يمكنهم الحديث معه في هذا الصمت المروع، أصبحت تلك الزاوية الصغيرة مكانًا يلتقي فيه المعذبون ليشاطروا ألمهم وآمالهم، استمعت إلى قصصهم، قصص فقدان أحبتهم وآلامهم التي تفيض من أعينهم قبل كلماتهم، كنت أعيش مع معاناتهم لأنني كنت واحدًا منهم، فارس الذي كان يومًا مجرد شاب يدرس في الجامعة ويحلم بمستقبل مشرق، أصبح الآن صوتًا للمعذبين وروحًا تبحث عن

الشفاء وسط رماد الدمار، فهيا لنسمع هذه الأصوات معًا، عسى أن نجد في صدقها طاقة تمنحنا القوة للاستمرار.

ماتعيطش يا زلمة

في وسط الخراب حيث الصواريخ لا تترك مجالًا للحياة، وقف رجل أربعيني يُمسك بيد شابٍ يبكي بحرقة على فقدان أخيه، بصوت مبحوح لكنه صلب قال:

_"ماتعيطش يا زلمة كلنا راجعون إلى الله."

عيناه حملتا كل الألم، جسده المنهك شهد كل الفقد لكنه ظل واقفًا، لم يكن يبكي بل يدفن الدموع في أعماقه وكأنها سلاحه الأخير ضد الانكسار، ذلك الرجل الذي فقد كل شيء؛ عائلته، منزله، أحلامه، لم يمت يوم فقدانهم لكنه مات يوم عرف أن من أطلق الصواريخ إنسان مثله بلا قلب.

فـي زمـن الحـروب كانـت كلمـات هـذا الرجـل مقاومـةً بحـد ذاتهـا، لا سـلاح ولا درع، فقط صوت يقول لكل من فقد:

_"نحـن عـابرون فـي هـذه الحيـاة، فـارفع رأسك، وصبرك هو نجاتك."

مقاوم بلا سلاح

تفاجأت حين قطعت صمت الغرفة دقات متتالية على الباب كأنها تعلن قدوم خطر مجهول، تسارع خفقان قلبي وارتجفت يداي، فتحت الباب ببطء، ظهر أمامي رجل ضخم يحمل بندقية قديمة، توحي ملامحها بأنها شهدت معارك طويلة، لم ينتظر إذني بل تقدم بخطوات ثقيلة وجلس على الأريكة وكأنه يحمل الكون فوق كتفيه، شعرت بالتوتر لكني تمالكت نفسي وقلت:

_"كيف أساعدك يا سيدي؟"

رفع بصره إليّ، ملامحه بدت وكأنها نُحتت من التعب، قال بصوت خافت لكنه مشحون بالمعاناة:

_"قالوا لي إنك تعالج جروحًا لا تُرى."

ابتلعت ريقي وقلت:

_"صحيح، أنا هنا لمساعدتك."

وضع البندقية بجانبه بحذر وقال:

_"نادني نضال."

ترددت للحظة ثم قلت محاولة كسر الجليد:

_"نضال، اسم يحمل الكثير، أظنك من الرجال الذين يحمون تراب هذا الوطن."

ظهرت على وجهه ابتسامة باهتة. قال وهو يشد على كلماته:

_"شكرًا يا دكتور، لم أسمع كلمات كهذه منذ زمن، الجميع يتجنبونني كأنني طاعون، يسمونني إرهابيًا لأنني أرتدي

هـذه الكوفيـة أو أطلـق لحيتـي كـأن هويتنـا أصبحت وصمة عار."

ثـم صـمت للحظـة وعينـاه تحـدقان فـي الفراغ، تابع بصوت يشوبه الحزن:

_"الحـرب ليسـت فقـط مـا يقتلنـا بـل مـا تتركـه فينـا، أخـذت منـي أصـدقائي، عـائلتي وحتـى أجـزاءً منـي لا أسـتطيع اسـتعادتها، ومع كل معركة أرى نفسي أضيع أكثر."

نظر إليّ وصوته كاد ينكسر:

_"لكـن الجـرح الأعمـق يـأتي مـن النـاس، كلمـاتهم طلقـات لا تخطـئ، "ابتعـدوا، الإرهـابي هنـا" هـل لأننـي أحمـي أرضـي؟ أم لأنني أرفض أن أنحني؟"

شعرت بالثقل في كلماته لكنه كان يحتاج إلى أكثر من مجرد التعاطف، حاولت أن أتمالك نفسي وقلت بنبرة صادقة:

_"نضال، قد لا يفهم الجميع اليوم ما تقدمه لكن يومًا ما سيبقى نضالك شاهدًا على الحق، لا تدع هذه الكلمات تحطمك، دعنا نحاول إصلاح ما مزقته هذه الحرب داخلك."

هاي أمي بعرفها من شعرها

أمل فتاة صغيرة عاشت في عائلة دافئة مع أب وأم متماسكين، متمسكين بأيدي بعضهما، متحدين معًا لمواجهة قبح هذا العالم لكن للأسف كانت إسرائيل أقبح ما في الوجود، فمن خلال صواريخها اللعينة فككت دولة الاحتلال كل أحلام الصغيرة وحولتها إلى رماد منثور، وجعلت حياة أمل مليئة بألم الفقدان والوجع.

في إحدى الليالي الحالكة هجم الإسرائيليون الإرهابيون على بيت أمل الصغير المحاط بأجمل الأزهار والنباتات تحولت تلك الكوابيس التي كانت تخشاها الطفلة إلى حقيقة مرة تطاردها طيلة

حياتها، تهاوى المنزل، ذبلت الأزهار، ودوى صوت الانفجار في كل مكان.

في لحظات مرعبة، نُقل كل من والدها وجميع من في الحي إلى المستشفى لكن الأطباء لم يتمكنوا من إنقاذ الأرواح التي غادرت، حُرم الجميع من رؤية وجوه أحبائهم المشوهة بسبب عنف الاحتلال، وبينما كانت أمل تبحث بلهفة بين الجثث تعرفت على والدتها من خصلات شعرها الطويلة، صرخت بألم وهي تجري في المخيم:

_"هاي أمي! بعرفها من شعرها!"

رغم أن ما بقي هو مجرد شعر، استطاعت أمل أن تعرف والدتها، كان الشعر الذهبي الطويل شاهدًا على

ذكريات مليئة بالحب، كانت والدتها تحتضنها دائمًا، تغطيها بشعرها لتحميها من همسات البرد وأشعة الشمس اللطيفة لكن تلك الذكريات تحولت إلى كابوس حيث أصبحت أمل ذات الشعر الذهبي اللامع طفلة صلعاء من هول الموقف وفظاعته، لقد عاشت أمل حياة سعيدة من قبل لكن بعد ذلك اليوم، توفيت الأم، ودُفن الشعر، واختفت الشمس، ورحلت السعادة، فسحقًا لكِ يا إسرائيل، سحقًا.

صحفي بلا صوت

يكافح أحمد الصحفي بلا صوت مع صديقه المصور لنقل حقيقة الألم والمعاناة في غزة، بعدسته المخشوشة وميكروفونه المهتَل يسعى لتوثيق المجازر كما هي دون تزييف أو تحريف لكنه اصطدم بجدار الاتهامات، فقد وُصم بمعاداة السامية لأنه لم يعكس الرواية التي تريدها القوى الكبرى، تلك الرواية التي يرويها مراسلو BBC وCNN، والتي تُظهر "رحمة" جنود إسرائيل وكيفية "مساعدتهم" و "مساندتهم" للعامة خاصة النساء والأطفال واتباعهم "القوانين الدولية" لحرية التعبير

_"إنهم حقًا الجيش الأكثر أخلاقية في العالم!"

بين خوذته وسترة الصحافة الزرقاء، كان أحمد يظن أنه يحمل درعًا للحق ورمزًا لحرية التعبير لكنه سرعان ما أدرك أن رصاص العدو لا يعترف بهذه الرموز، اخترقت الرصاصات صوته فألجمت كلماته إلى الأبد ولم تتوقف المأساة عنده؛ فقد طالت التهديدات أحبته وأقرباءه تاركة إياه وحيدًا في مواجهة قدر مظلم، ورغم صرخات الحق المكتومة، بقي العالم صامتًا خلف ستائره، منتظرًا لاكتشاف السرائر، فهل من حائر يتساءل؟ أم ناصر يناضل؟

إمرأة تحت الرماد

بعدما رجعتُ من دورة المياه الطويلة متعبًا إذ أتفاجأ بمريضتي حليمة وهي واضعة يدها على خدها، تحرق أَسدالها الخمسة بنار ملتهبة، تلك التي لبستها طوال الحرب، لم أُرِد حتى أن أسألها لماذا فعلت ذلك، اكتفيتُ بالصمت ونظرتُ بعيون مرهقة نحوها، ما أعرفه هو أنها نزحت تسع مرات من الشمال إلى الجنوب وتحملت ما لم تتحمله أي امرأة على هذا الكوكب، وضعت مولودًا في خيمة بعدما فقدت زوجها واستُشهدت أمها أمام عينها، وأُصيب أبوها وانكسر ظهرها، هي الوحيدة المدللة لأهلها لكن بيتها تدمر وتفككت

عائلتها، ومع ذلك اعتنت بأبنائها، زين وأيلول، واهتمت بنظافتهما كما لو أنها في بيتها، لبست إسدالها لتسعة أشهر كاملة، من صقيع البرد إلى حر الصيف، صبرُ حليمة نفد، ولا أعتقد أنها نفس الشخص كما كانت قبل هذه الإبادة لكن ما أعرفه جيدًا، في السلم والحرب، أنها تبقى أفضل امرأة أعرفها.

ابنة الإسرائيلى

لم تكن قصة ليلى مختلفة عن باقي قصص المعاناة لكنها حملت وجعًا خاصًا لا يشبه أي وجع آخر، ليلى تلك المرأة العشرينية، عاشت سنّ اليأس قبل أن تعرف سنّ الزهور، حملت دماء إسرائيلية بروح فلسطينية وكانت ترى نفسها وصمة عار كما وصفت ذاتها، بين مغتصب وضحية، بين جلادٍ لا يرحم ومجتمعٍ لا يغفر، كانت البداية مأساوية عندما فقدت والدتها بعد لحظات فقط من وقوع الجريمة التي شوّهت روحها وجسدها، اتُّهمت والدتها بالزنا رغم أنها كانت ضحية اغتصاب وحشي وعُذِّبت حتى ماتت وسط حفرة عميقة تتساقط

عليها الحجارة كالنار، وهي تحمل بقعة سوداء ألصقها بها المجتمع قسرًا، تركت ليلى وحيدة تواجه أحكامًا أشد قسوة، قالت ليلى بنبرة تختلط فيها المرارة واليأس:

_"كيف يمكن لجرحي أن يلتئم والمجتمع لا يكف عن نزفه بكلماته ونظراته؟"

رأوا فيها جاسوسةً، استخباراتية، خائنة وماكرة بل حتى سموها "بنت الكلب"، وصِفت بكل هذه الألقاب، رغم أن خطأها الوحيد كان وجودها في هذا العالم الذي لا يتسع لها، لم تكتفِ تلك الألقاب القاسية بتمزيق قلبها بل احتلت عقلها وتفكيرها، وجعلتها تفكر في الانتحار

عدة مرات بسبب شيء لم تكن مسؤولة عنه، لقد عانت بفعل جريمة وقسوة العدو وزادها المجتمع تعبًا وإرهاقًا.

توجهت ليلى بقلب مرهق إلى الشاطئ، خلعت نعليها ولامست المياه المالحة قدميها بكل رفق، وقفت هناك وهي لا تعرف أصلاً لماذا هي هنا، جلست تستمع لصوت الماء وهو يعانق الساحل بلا أي حكم أو شروط وكأن البحر وحده كان يعلم أن الأرواح المكسورة لا تحتاج إلا للقبول، شعرت لأول مرة أن الألم يمكن أن يذوب مع الموج ولو للحظة.

_"ربما كان البحر وحده يفهم أن الألم ليس لعنة دائمة بل جزء من الرحلة نحو السلام الداخلي."

الطبيب المريض

تفاجأت وأنا أرى طبيبنا المحبوب، رائد، يدخل باب عيادتي ظننت أنه جاء ليبارك لي، فقد حدثته كثيرًا عن طموحاتي في مجال الطب النفسي لكنه استلقى على الأريكة، وألقى تحية بوجه عابس.

_"إذن، ماذا ستداوي اليوم يا فارس؟" قالها رائد بنبرة ساخرة.

أجبته بابتسامة هادئة:

_"سأداوي مشاكلك إن وجدت."

ضحك بصوت عالٍ، قهقه حتى ذرفت عيناه دموعًا، للحظة، لم أدرِ هل كانت دموع ضحك أم دموع حزن ثم قال بصوت مبحوح:

_"مشاكل إن وجدت؟ يا صاح، نحن نعيش في غزة."

كانت جملة واحدة كافية لتلخص كل شيء، رائد الذي كان يومًا محبوب القرية تحوَّل إلى شخص آخر تمامًا، كان الجميع يتسابق لرد تحيته، وكان طيب القلب، صادقًا، يسعى لمساعدة مرضاه بعيادته البسيطة، تلك العيادة التي كانت تضج بالأمل رغم تواضعها؛ جدرانها المتشققة، أرففها التي لا تحمل سوى القليل لكنها دائمًا كانت تمتلك شيئًا واحدًا: صوت رائد الهادئ، بلهجته اللطيفة وكلماته التي كانت تشفي القلوب قبل أن تصل إليها الأدوية، لكن الآن؟ بات رائد كئيبًا ومرهقًا، عيناه غائرتان،

ووجهه شاحب كأنما أخذ الليل منه أكثر مما أعطاه، لم ينم الليل، ولم يعش الصباح، حتى رائحة القهوة التي كانت تمنحه بعض الدفء في بدايات يومه لم تعد تجذبه، لم تتح له فرصة لالتقاط أنفاسه أو عيش لحظة واحدة من السعادة في مهنته التي أحبها منذ الصغر.

رائد قائد "الجيش الأبيض" أصبح الآن قائدًا وحيدًا بلا جيش، جيشه قُتل، ومن تبقى منه رحل بعيدًا، وجد نفسه يدور من طابق إلى طابق، ومن عملية إلى أخرى يواجه مشاكل تفوق قدرته، أدوات طبية غير متوفرة، تخدير منعدم، وقرارات مستحيلة:

إما ترك المريض يموت بألم أو إنقاذه بألم أشد قسوة.

نظرت إليه محاولًا أن أجد كلمات تواسيه لكن ماذا يمكن أن أقول؟ كان غارقًا في أفكاره كأنه يبحث عن شعاع نور وسط الظلام الذي أحاط به، رائد الذي كان يضيء العتمة بابتسامته، بات هو نفسه بحاجة إلى من يعيد إليه النور، فهل سيتمكن رائد من النهوض مجددًا؟ وهل يستطيع إعادة الحياة إلى جيشه؟

عمي أحمد، أستاذ غزة

هكذا كانوا يلقبونه، عمي أحمد هو رجل في الستين من عمره كرّس حياته لتعليم أجيال وأجيال من أبناء غزة، لم تكن سعادته تكمن إلا في رؤية تلاميذه يحققون أعلى الدرجات، ولم ينادِ أي تلميذ باسمه قط بل اختار كلمة "بنيّ" لتعزيز العلاقة بينه وبين طلابه كأنه أب حقيقي لهم.

لم يكتفِ عمي أحمد بدروس الجبر والهندسة بل كان معلمًا للحياة، علّم تلاميذه عن التاريخ العريق الذي حاول المحتل طمسه، وعرّفهم بالدين والفقه ليحفظ هويتهم الأصيلة، كان يظهر يوميًا مرتديًا أزياء تقليدية، في تحدٍّ واضح لكل

من أراد محو ثقافة هذا الشعب، لكن للأسف لم يكن الكل يحب هذا التاريخ، فقد استهدف جيش لا تاريخ له مدارسنا، ومراكزنا التعليمية، وكل مكان يُطلب فيه العلم، حتى بعدما أصبحت المدارس مأوى لنا في ظل الحرب، أكمل الجيش مهمته في محو هويتنا، محاولًا أن يجعل منا شعبًا بلا ذاكرة، بلا وعي.

ومع استمرار الحرب وتدمير المدارس، وجد عمي أحمد نفسه وحيدًا، بلا تلاميذ وبلا مكان يحمل رسالته التي كرّس لها حياته، صار يجوب شوارع غزة مذهولًا مما آلت إليه الأوضاع، لم يستطع تحمل المشهد: الأماكن التي كانت يومًا ما صروحًا للعلم، أصبحت خرابًا، ذكريات

الأمل والتفوق تحولت إلى صمت قاتل ينهش الروح ويثقل القلب، لم يمض وقت طويل حتى بدأ عقله ينهار تحت وطأة الألم، لم يعد عمي أحمد ذلك الأستاذ العريق الذي علّم أجيالًا بل أصبح رجلًا تائهًا يجوب الشوارع بلا هدف، رأيته يومها ودموعي لم تتوقف، دخل عندي لكنه لم يكن عمي أحمد الذي عرفناه، الأستاذ الذي علّمنا الحكمة صار جاهلًا، ضحية للظلم والقهر.

يوسف أبيضاني وحلو

أم يوسف ما رأت حياتها وسعادتها إلا في يوسف ذو التسع سنوات، ذو الشعر المجعد والعينين كعيني الغزال، المكسو بلون أبيض يذوب فيه جميع مشاكل الحرب والظلم، رغم ذلك فقدت والدته بصيرتها، وكان يوسف من أطفال غزة الذين لقوا حتفهم جراء الإبادة الجماعية كانت أم يوسف مع ابنها الوحيد تتنقل بين الجوع والألم، تسعى جاهدة للحصول على بعض الفتات لتسد جوعه دون أن تعلم أنه سيموت جائعًا، بعد ابتعادها عن منزلها أصابت الصواريخ الإسرائيلية منزلهم "بالخطأ"، ما إن التفتت حتى رأت حياتها تتقطع إلى

أجـــزاء، بيتهـــا وعائلتهـــا، وخصوصًـــا روحهـــا وقلبهـــا يوســـف، رغـــم ذلـــك المشـــهد المأســـاوي لـــم تتقبـــل القـــدر وركضـــت بـــين أروقـــة المستشـــفى علهـــا تجـــد ابنهـــا مجروحًـــا أو علـــى الأقـــل علـــى قيـــد الحيـــاة، وجدتـــه لكـــن جســـده كـــان ملفوفًـــا فـــي برنـــوس أبـــيض، مغطـــى ببقـــع حمـــراء، مـــات يوسف، وماتت روح أمه معه.

سجين أطلق جسده لا روحه

بعد أكثر من عشر سنوات في غرفة صغيرة لا ترى فيها حبًا ولا نورًا من أشعة الشمس، محاطة بجدران حديدية سميكة ويُعرف أيضًا باسم السجن، يخرج وائل، الشاب الفلسطيني الذي أصبح كهلاً بفعل الزمن وضياع شبابه وحياته، جنحته؟ تحريض على العنف والإرهاب كما يدّعون، لكن الحقيقة مختلفة تمامًا، فقد شارك في مظاهرة سلمية ورفع بكل فخر هويته وانتماءه، علم فلسطين الحبيبة، ما إن رفع العلم حتى انقض عليه جنود الاحتلال واقتادوه إلى السجن كعبرة للآخرين، وكأنه مجرد قمامة في مكان مهجور، أتعلم كم هو

صعب أن تُقنع نفسك بأن حمل علمك جريمة؟ والأصعب من ذلك أن تُجبر على نسيان الابتسامة:

_"لقد ذقت كل أشكال التعذيب، جرحوني، عذبوني، شوهوني، وحتى اغتصبوني، لم أعد أعرف نفسي كما كنت."

رأيت أمامي رجلاً بشعره الرمادي ولحيته الطويلة، كل شعرة منه تحكي ألمًا عاشه يوميًا في تلك الزنزانة الباردة لم يكن وائل الشخص الذي عرفته سابقًا، كانوا يجعلونه وحيدًا، يائسًا، بائسًا، فاقدًا للأمل، حتى أن التفكير في الاستمرار بالحياة أصبح عبئًا ثقيلًا عليه، قال لي مرة بابتسامة باهتة:

_"أكبر معروف قدموه لي أنهم منعوني من الانتحار لكن هل هذا معروف حقًا؟"

كانت عيناه المتعبتان تحكيان كل شيء بصمت، كل تفصيل كان شاهدًا على المعاناة التي عاشها، شعرت في تلك اللحظة أن وائل قد مات منذ سنوات، وأن ما بقي هو جسد يحمل قصته ليكون شاهدًا على الظلم.

عربي 48

رغم تمتعهم ببعض الحقوق الشكلية إلا أنها قيود خفية لا يدركها الكثيرون، قصتهم تعود إلى عام 1948، عندما قامت "الجمهورية الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط" على أرض فلسطين أكثر من مليون فلسطيني أُجبروا على الفرار بعيدًا عن بطش الاحتلال الإسرائيلي لكن البعض لم يجد طريقًا للهرب، أكثر من 156 ألف فلسطيني اضطروا للبقاء في الداخل ليعيشوا تحت قساوة الاحتلال وظلمه.

كان عمر واحدًا ممن لم يحالفهم الحظ. عاش في وطنه غريبًا، يجاهد فقط ليحافظ على اسمه "عمر"، لا "جون"،

متمسكًا بجذوره وهويته، محاولًا التأقلم مع واقع مرير، كان حلمه بسيطًا: وطنٌ يحضنه، وهويةٌ تعبر عنه، لكن حتى هذا الحلم كان مستحيلًا، لم تكن معاناته تتوقف عند الظلم الذي تعرض له يوميًا بل كانت تمتد إلى لغته، ودينه، وحتى طريقه إلى المدرسة حيث كانت حجتهم دائمًا "الأمن"، كيف يمكن لطالب يحمل أوراقًا وكتبًا أن يُشكل "تهديدًا للأمن"؟ ومع ذلك كان للتعليم الإسرائيلي رأي آخر، أوقفوه عن الدراسة بعدما فشلوا في غسل دماغه بأفكارهم المسمومة، جعلوه إرهابيًا ومجرمًا وتهديدًا لأمنهم المزعوم، طُرد ببساطة وعاش يحمل جواز سفر لا يعبر عنه، ودرس في

مدارس ليست له، وحمل هوية ليست هويته، ورغم كل شيء كان عمر رجلًا شجاعًا، وقف وقالها بفخر:

_"أنا عربي، أنا مسلم، أنا فلسطيني."

لكن رصاص الاحتلال كان أسرع من كلماته، سلامًا لروحك يا عمر، سلامًا لكل من قاوم ولم ينحنِ.

وفى النهاية

بعد كل تلك الحكايا التي سُجلت بأحرف من ألم وأمل، أدركت أن الأجساد قد تتعب والقلوب قد تتآكل لكن الروح تظل تقاوم وسط الدمار، وتحت صوت القذائف، سقطت الأجساد لكن الإرادة بقيت، وعندما نظرت إلى أولئك الذين فقدوا كل شيء، اكتشفت أن المصير لا يُكتب إلا بأيدينا مهما حاولت الحرب أن تمحو ملامحنا، تساءلت:

_"ماذا عن أولئك الذين فقدوا أحبائهم؟ ماذا عن وطنهم الذي ينهشه الغدر في كل زاوية؟ هل ستظل الحكايات على جدران الخراب، أم ستظل قصصهم حية في قلوب من يعرفون المعاناة؟"

ربما لا تكون هناك إجابة حاسمة لأن الحياة تظل غامضة، والحرب تقتلع الإجابات قبل أن تقتلع الأرواح لكن ما تعلمته هو أن الألم لا يختفي لكنه يعلّمنا كيف نعيش معه، قد يكون العالم غارقًا في الظلام، وقد نواجه خساراتنا التي لا تُعد ولا تُحصى لكننا نستمر، وليس لأننا نملك الأمل بل لأن الحياة تستمر رغم كل شيء، نعيش، نؤلم، لكننا نواصل السير لأن الوقوف ليس خيارًا فحسب بل هو الواجب الوحيد أمامنا إذ لا سبيل للهروب من هذا العالم الذي يعج بالألم إلا بأن نثبت فيه، نحارب من أجل البقاء ونبني في ظلامه نورًا لطريقنا.

469 يوما

ربوحي يوسف، كاتب ومحلل اقتصادي وسياسي شاب، يبلغ من العمر 15 عامًا. يجمع في أعماله بين عمق الفكر وبراعة التعبير، مع اهتمام بالقضايا الإنسانية والاجتماعية. كتابه الأول " 469 يوما"

وفي النهاية، بعد كل تلك الحكايا التي سُجلت بأحرف من ألم وأمل، أدركت أن الأجساد قد تتعب والقلوب قد تتآكل، لكن الروح تظل تقاوم. وسط الدمار، وتحت صوت القذائف، سقطت الأجساد، لكن الإرادة بقيت. وعندما نظرت إلى أولئك الذين فقدوا كل شيء، اكتشفت أن المصير لا يُكتب إلا بأيدينا، مهما حاولت الحرب أن تمحو ملامحنا.

تساءلت: ماذا عن أولئك الذين فقدوا أحبائهم؟ ماذا عن وطنهم الذي ينهشه الغدر في كل زاوية؟ هل ستظل الحكايات على جدران الخراب، أم ستظل قصصهم حية في قلوب من يعرفون المعاناة؟

نسمات الأدب
نشر الكتروني

مديرة الدار : رزان محمد كليب
تصميم الغلاف : منى وجيه